أعلام العرب

٩٤

المبرد

(أديب النحاة)

تأليف : أحمد حسنين القرني

وعبد الحفيظ فرغلي علي

الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر

١٩٧١

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه نستعين بدءا وختما ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد أفصح العرب وأبلغ الناطقين بالضاد ، وعلى آله وأصحابه الذين عذبت ألسنتهم ، وتنزهت عن الخطأ واللغو لغتهم ·

وبعد ، فهذا تعريف بامام من أئمة اللغة والأدب الذين تركوا فى هذين الميدانين أثرا مشهودا ، وبذلوا فيهما جهدا مشكورا · هو الامام أبو العباس المبرد ، صاحب «الكامل» و «المقتضب» وغيرهما من المؤلفات النافعة والمصنفات النفيسة ،التى تناولت مختلف العلوم والفنون فى عصره الذى زخر بكثير من العلماء والادباء وظهر بينهم من التنافس ما أدى الى ازدهار الحركة العلمية والادبية فأثمرت ثمارا يانعة وآتت أكلها ضعفين ·

لقد برز أثر المبرد فى ميادين عدة ، وأداه نبوغه الى أن يؤلف فى كل ما كان يشغل بال العلماء حينئذ ، فله فى كل من الأدب وفنونه ، والنحو وفروعه ، والشعر وقواعده وعروضه ، والبلاغة والنقد ، والقرآن ومعانيه ، وغريب اللغة والأنساب ، والخط والهجاء وغير ذلك مؤلف أو مؤلفات · وهذا يشهد ببراعته واتساع دائرة معارفه وثقافته ·

لقد ظهر المبرد فى القرن الثالث الهجرى ، وعاصر كثيرا من خلفاء العباسيين الذين فتحوا قلوبهم وبيوتهم للعلم والعلماء ، مما كان له أثره فى اشعال جذوة المعرفة بين الطوائف المختلفة من عرب خلص ، وموال تعلموا اللغة العربية وأتقنوا علومها ونبغوا فيها ، ونشأ عن ذلك صراع ظاهر أحيانا ومستتر أحيانا ، وتعددت جوانب هذا الصراع فى نواح متشعبة ظهرت فى التعصب للرأى أو المذهب أو الجنس • فللنحو مذاهبه المختلفة التى دعا اليها البصريون والكوفيون وغيرهم ، وفى علوم الكلام ظهرت فرق الأشاعرة والماتريدية والمعتزلة وغيرها ، كما ظهرت مذاهب الفقه المختلفة ، وبرزت الشعوبية بدعوتها العنصرية المتطرفة التى حاولت الحط من شأن العرب ، ودان بفكرتها بعض الادباء والشعراء ، واستظل بظلها كثير من الزنادقة والملحدين •

ظهر المبرد فى هذا العصر الحافل بهذه الاتجاهات التى أثرى من ورائها الفكر العربى ، وكان له فيها سهم وافر ابان عن نبوغه ، ودل على مكانته ونبه على فطنته ، مما جعل المتوكل يخصه برعايته ، ويسبغ عليه ثوب عنايته ، ويقربه اليه ويأمر حجابه ألا يغلقوا الأبواب دونه ، وأن يسهلوا أمر دخوله اليه ، مما جعل الوزراء والأمراء يتوافدون اليه ، ويحرصون على معرفته والانتهال من فيض علمه ، وكان لبراعته وخفة روحه وتمكنه من مادته ، ومقدرته اللغوية وكثرة محفوظاته وسرعة استشهاداته أثر كبير فى اقبال التلاميذ نحوه وتحلقهم حوله حتى أفادوا منه الكثير وانتفعوا بعلمه الغزير ، كما كان له أثره فى اشتعال حدة المنافسة بينه وبين معاصريه وبخاصة ثعلب امام الكوفيين فى النحو •

ويعد المبرد من ممثلى الثقافة العربية الخالصة فى هذا العصر، ويقرر الدكتور أحمد أمين ذلك فى كتابه «ضحى الاسلام» ، ويعده مع كتابه الكامل خير نموذج لهذه الثقافة التى كادت تتميز بالناحية

التخصصية • باستثناء المبرد ، فقد تشعبت معارفه واتجهت الى فنون مختلفة كما أسلفنا ، وفى كل فن من هذه الفنون نراه ـ فى براعته ودقته ـ أستاذا متخصصا فى فنه ومادته •

وربما كان خلوص المبرد للثقافة العربية وحدها يرجع الى غيرته الشديدة على قوميته العربية تلك الغيرة التى جعلته يصفى نفسه لعلوم اللغة العربية وآدابها ويتصدى لأعدائها مدافعا عنها ذائدا عن حياضها نائيا بنفسه عن تيار السياسة الجارف حتى لا يشغله ذلك عن رسالته التى أعد نفسه لها على الرغم من تقريب المتوكل له ، وحرص غيره على استدنائه ، والتفاف الوجهاء حوله •

ولا يفوتنا التنويه بالأثر الضخم الذى تركه المبرد فى ميدان النقد والبلاغة والنحو ، وكتبه التى تركها فى هذا المجال ، ومجالسه التى كان يعقدها مع تلاميذه ومحاوراته مع غيره من العلماء والأدباء خير شاهد على ذلك •

ومن الضرورى التمهيد فى هذا الكتاب بلمحة عن الحالة السياسية والاجتماعية التى تباينت فى هذا العصر ، مما كان له صدى فى تباين الثقافة وتنوع روافدها وأسبابها واختلاف مؤداها وما ترتب على ذلك من اتساع هوة الخلاف واشتداد الصراع بين الحين والحين ، ومن طروء اللحن والفساد على اللسان العربى ، وكان من الضرورى أيضا التعرض للأدب العربى وتطوره ، ولنشأة النحو وتطوره حتى وصلا الى الصورة التى نراها متمثلة فى صفحات كل من الكامل والمقتضب ، تلك الصورة التى وصلت الى مستوى مناسب من النضج فى العقلية العربية والذوق العربى والبيان العربى •

ولا بد اذن من الاشارة الى هذا التراث العلمى واللغوى والادبى الذى خلفه هذا الامام الثبت الحجة ، كشاهد عدل على مدى ما وصل اليه من سبق وتقدم •

ولا يجوز أن نغفل فى هـذا الكتاب ـ وهو عن المبرد وعلمه وأدبه ـ التنويه بشـاعريته المتدفقة التى كانت تعينه فى كثير من المواقف ، وتسعفه بالجواب السـديد فى وقت يعز فيه على النثر الاعانة والجواب ، وان كان أكثر أشعاره لم يصل الينا حتى يمكن التعرف على خصائص هذه الشاعرية ومقوماتها الفنية ، والمقارنة بين انتاجه وانتاج غيره من الشعراء ٠

وخطتنا فى عرض هذه الفصول من «كتـاب المبرد» استنطاق النصوص والشواهد التى تعين على اجلاء مانحن بصدده من التعريف بهذه الشخصية الفريدة ، التى نشعر بأن الحاجة ماسة الى التعريف بها ، حتى يتخذ منها العالم والمتعلم على السواء مثلا يحتذى فى الصبر على معاناة العلم واجتناء ثمره ، وعدم الوقوف عند غاية قريبة منه ، فالعلم بحر لا ساحل له ، والاجتزاء منه بالقليل تقصير وعجز ٠

اننا الآن فى عصر تقدمت فيه العلوم وارتقت الثقافة ، ولكنا نرى الغالبية من ألسنة أبنائنا لا تكاد بالفصحى تبين ، وما تبدأ بها حتى تتعثر فيها ، فتلجأ الى العامية تحتمى فيها ، وعامية كل قطر عربى تختلف عن عامية القطر الآخر ، فلا يستطيع المتحدث بها أن يحقق الهدف المنشود من الحديث الذى يلقيه ، ولاسبيل الى الخلاص من ذلك الا بالاقبال على قراءة كتب الادب واللغة وبخـاصة القديم منها ، لتزول شيئا فشيئا هذه العـامية التى هى مظهر من مظاهر تفرق أجزاء الوطن العربى ، ولتسود الفصحى التى هى مظهر الوحدة العربية التى ننشدها والتى يجاهد الزعماء والقـادة فى سبيل تحقيقها ٠

انا لنرجو اذن أن يكون هذا البحث حافزا للأبناء والاخوة على أن يتزودوا من الادب القديم وأن يعلموا أن لغتهم من خـير اللغات ومن أغناها ، وليست كما يقول من يحاولون اخفاء جهلهم بها وراء ستار العامية بأنهـا لا تسعفهم فى التعبـير عن آرائهم الادبية أو

الاجتماعية أو السياسية ، فهى حقا لا تسعفهم لأنهم لم يحصلوا عليها ولم يتزودوا منها ، وهى فى حقيقة أمرها كما تحدثت عن نفسها فى شعر حافظ ابراهيم شاعر النيل :

وسعت كتاب الله لفظا وغاية ... وما ضقت عن آى به وعظات
فكيف أضيق اليوم عن وصف آلة ... وتنسيق أسماء لمخترعات ؟
أنا البحر فى أحشائه الدر كامن ... فهل سألوا الغواص عن صدفاتى؟

ونحن نستعين فى كتابنا هذا بالله راجين اياه أن يرزقنا التوفيق والسداد . وأن يلهمنا طريق الرشاد انه نعم المولى ونعم النصير .

المؤلفان

عصر المبرّد

الحالة السياسية والاجتماعية

ولد المبرد سنة ٢١٠ هـ وتوفى سنة ٢٨٥ هـ ، وعاصر تسعة من الخلفاء العباسيين هم : ١ ـ المأمون (١٩٨ ـ ٢١٨ هـ) ٢ ـ المعتصم (٢١٨ ـ ٢٢٧ هـ) ٣ ـ الواثق (٢٢٧ ـ ٢٣٢ هـ) ٤ ـ المتوكل (٢٣٢ ـ ٢٤٧ هـ) ٥ ـ المنتصر (٢٤٧ ـ ٢٤٨ هـ) ٦ ـ المستعين (٢٤٨ ـ ٢٥٢ هـ) ٧ ـ المهتدى (٢٥٢ ـ ٢٥٦ هـ) ٨ ـ المعتمد (٢٥٦ ـ ٢٧٩ هـ) ٩ ـ المعتضد (٢٧٩ ـ ٢٩٠ هـ)

والقرن الثالث الذى عاش فيه المبرد شهد عهدين من عهود الخلافة :

أولهما ـ عهد سلطان الخلفاء وقد بدأ بأبى العباس السفاح الذى أخذ يعمل على توطيد دعائم الدولة العباسية ، ثم سار الخلفاء من بعده على نهجه لبناء مجد الدولة وتثبيت أركانها وحمايتها من العناصر الدخيلة التى تأتمر بها . ولقد كان أقل غرور من دخيل أو معاد ، أو أقل تمرد على سلطان الدولة كفيلا بأن يثير الخليفةويحمله على البطش أشد البطش بمن تحدثه نفسه بشىء من ذلك ، على نحو ما فعل السفاح بأبى سلمة الخلال وزيره الفارسى ، ومافعل المنصور بأبى مسلم الخراسانى الذى يعتبر أكبر مؤسس لدولة العباسيين ، وما فعل الرشيد بالبرامكة ، والمأمون بالحسن بن سهل صهره ووزيره ، والمعتصم بالأفشين قائد جيوشه .

وثانيهما ـ عهد تقلص نفوذ الخلفاء ، وقد بدأ بظهور الاتراك وذلك أن المعتصم لما تولى الخلافة وجد نفسه بين قوتين تتصارعان فى سبيل السيطرة على الدولة هما : العرب من جانب ، والفرس من جانب آخر ، فأراد أن ينشىء قوة يحمى بها سلطان الدولة من هذين المتناهضين ، ولأنه من أم تركية جعل هذه القوة تتمثل فى الاتراك فاستكثر منهم ، ووكل أمور الدولة اليهم ، وأبعد كل من عداهم ، حتى لقد روى أنه كتب الى واليه على مصر واسمه كيدر نصر بن عبدالله يطلب منه أن يخلص جهاز الحكم من كل من هو عربى ، وأن يقطع عن العرب كل أعطياتهم. وحين استعان بهؤلاء الاتراك كان كالمستجير من الرمضاء بالنار فقد تحولوا الى نقمة على الدولة ، وكانوا مصدر ضعفها وانحلالها ، وزاد نفوذهم من بعده فقتلوا الخليفة المتوكل بمعونة من ابنه وولى عهده المنتصر مما حمل البحترى الذى شهد مصرع الخليفة أن يقول فى رثائه له :

أكان ولى العهد أضمر غدرة ... فمن عجب أن ولى العهد غادره

ومن بعد المتوكل صار كل خليفة ألعوبة فى أيدى هؤلاء الاتراك يولون من شاءوا ثم لا يلبثون أن يخلعوه ثم يقتلوه . ولقد أثر عن الخليفة المعتمد أنه احتاج يوما الى ثلثمائة دينار فلم يجدها فقال فى ذلك شعرا روى منه جلال الدين السيوطى قوله :

أليس من العجائب أن مثلى ... يرى ما قل ممتنعا عليه
وتؤخذ باسمه الدنيا جميعا ... وما من ذاك شىء فى يديه

وروى عنه السيوطى أيضا قوله :

أصبحت لا أملك دفعا لما ... أسام من خسف ومن ذله
اذا اشتهيت الشىء ولوا به ... عنى وقالوا : ها هنا عله

وهذه النكبات التى تعرض لها الخلفاء كان لها أثر سيىء فى تصريف أمور الدولة فكثر العزل والتولية بين الحكام ، واستتبع

ذلك انتشار الفساد، وتفشى الرشوة، وكثرت السرقات والمصادرات، وتعرضت الدولة لثورات سياسية واجتماعية هزت كيانها وكان منها ثورة الزنج التى ظهرت فى بلاد البحرين سنة ٢٤٩ هـ وانتقل زعيمها الى البصرة سنة ٢٥٤ فطارده حاكمها رجاء بن حيوة فهجرها واختفى فى بغداد ، ثم عاد اليها بعد أن عزل عنها رجاء ، وأخذ يغرى العبيد والأجراء بالمال والسلطان فانضم اليه آلاف مؤلفة قاموا بفتنة قتل خلالها فى البصرة وحدها ثلثمائة ألف فى يوم واحد على حد تقدير السيوطى ٠

وقبل الاسلام كانت النزعة القبلية متأصلة فى نفوس العرب، فكان العربى يرى أعظم مفاخره فى الانتساب الى قبيلته ، وفى الاعتزاز بانتصاراتها ، والاشتراك فى الثأر لها ٠ ولكن بمقدار ما ربطت هذه النزعة بين الفرد وقبيلته باعدت بين القبائل وبعضها فكثرت العداوات وزادت الخصومات القبلية ، وأصبحت غارة القبيلة العربية على أختها أمرا مألوفا يردده شاعرهم الذى يقول :

وأحيانا على بكر أخينا اذا ما لم نجد الا أخانا

ثم جاء الاسلام فحارب هذه النزعة ونادى بأن المسلم أخو المسلم ، وأن المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا ، وأنه ليس من المؤمنين الصادقين من دعا بدعوى الجاهلية ٠

وفى ظل الاسلام ومبادئه اختفت النزعة القبلية ولكن لم تستأصل العصبية من النفوس استئصالا تاما لما فى طبيعة العرب من حفظ الأنساب ، والتفاخر بأمجاد الأسلاف ٠

وبدأ الاسلام يتأثر بالفتوحات الجديدة ، وبالبلاد التى دخلها العرب فاتحين ، أو ببعض أهل البلاد المفتوحة الذين وفدوا اليهم وامتزجوا بهم ٠٠ جاء هذا كله بعد أن ظلوا محصورين فى شبه الجزيرة العربية قل منهم من يتجاوزها الى غيرها ، وقل من يأتى

اليهم من جهات العالم الأخرى • وعندئذ وجدوا مجالا حيويا فسيحا لنهضتهم وتقـــدمهم ، وأفادوا من احتكاكهم بالفرس والروم مدنية جديدة أرسوا قواعدها على أساس من دينهم الحنيف •

ودخل في الاسلام كثير من أبناء فارس ، واتخذوا العربية لغة لهم ، وسماهم العرب «الموالى» وهى تسمية ذكية ذات هدف ، أو هى ممـــا نسـميه الآن «الكلمات الدبلوماسية» التى تحتمل عدة تفسيرات ، فكلمة «مولى» تحمل معنى الحليف ، والصديق ، والعبد• وأصبح هؤلاء الموالى يمثلون عنصرا نشيطا يحس فى قرارة نفسه أنه سليل حضارة ومدنية أرقى من حضارة هؤلاء العرب ومدنيتهم، وأنه من شعب كان يسيطر على البلاد المجاورة له ومنها البلاد العربية منذ زمن بعيد ، ولهذا انحرفوا انحرافات سنعرض لهـا بعد قليل • هذا ، وقد امتزجوا بالعرب امتزاج تزاوج ومصاهرة فنشأ منهم جيل تميز بالعقل الواسع والتدبير المحكم يصدق عليه ما رواه المبرد اذ قال : زعم عمر بن الخطاب أنه ليس أحد أذكى من أبنـاء السرارى لأن لهم عز العرب وتدبير العجم ، وهذا هو الذى جعـــل الرقاشى الشاعر العباسى يقول :

ان أولاد الســـرارى كثـــروا يا رب فينـــا
رب أدخلنى بـــلادا لا أرى فيهـــا هجينا

والهـــجين هو الذى تكون أمه أمة من السرارى وأبوه عربيا شريفا • وقـــد كثر زواج أشراف العرب من الجوارى الحسان من الفرس والروم والترك وغيرهم ، وأكثر أمهات الخلفاء العباسيين من هؤلاء الجوارى ، وقـد كان ذلك واحدا من أســباب جعلت الدولة العباسية تقوم بأيد فارسية ، وتسير بأيد فارســية ، ثم بعد ذلك تركية •

هؤلاء الموالى كانوا فى عصر بنى أمية قد عجزوا عن التنفيس عن حقدهم المكبوت فأخذوا يغزون ميـادين العلم والادب ويتقربون

بذلك الى الحـــكام ، ويعملون فى خفـــاء وحـــذر على اعادة الدولة الفارسية • وتقربهم من العراق اتخذوا التشيع مذهبا لهم ، وظلوا يعملون فى الخفاء حتى سقطت الدولة الأموية وقامت بمعونتهـــم الدولة العباسية فأفسحت صدرها لهم ، واحتلوا المراكز القيادية وصاروا شوكة فى ظهر العرب مما جعل المعتصم يعمد الى الاستكثار من الموالى الأتراك الذين تمزقت بسلطـــانهم الدولة العباسية شر ممزق •

تلك صورة موجزة للحياة السياسية والاجتماعية فى الدولة العباسية خلال الفترة التى عاشها العلامة المبرد الذى نترجم له ، وبقى أن نتحدث بايجاز عن الحالة العلمية والادبية فى هذه الفترة•

الحالة العلمية والأدبية

فى أواسط القرن الثانى الهجرى عنى المسلمون بدراسة علوم كثيرة من أهمها العلوم الشرعية واللسانية من لغـوية ونحـــوية ، والعلوم الكونية •• وكانوا يعتمدون فى هذه العـلوم على المشافهة أو الاستملاء من أكابر العلماء • وكان أكثر اعتمادهم فى هـذا عـلى الذاكرة ، وان كان بعضهم يرجـــع الى دفاتر كانوا يستملونها أو يستنسخونها ثم يحتفظون بهـــا ليرجعوا اليهـا وقت الحاجة • وقد عرف الجـــاحظ بكثرة ما اجتمع لديه من هـذه الدفاتر التى كان يستنسخها أو يشـتريها أو يستأجرها من دكاكين الوراقين ، وقد سجل التاريخ أنه مات تحت أكداس هـذه الدفاتر التى انهـــارت صفوفها عليه وهو ينقب فيهـــا بعد أن كان قد أصيب فى أخريات حياته بالفالج • ويروى المبرد أنه حين لقى الخليفة المتوكل أول مرة اختبره بعبارة معقدة كان يحفظها فاستمهله الى اليوم التالى ، ثم عاد الى مقره يبحث فى دفاتره حتى عثر على الجواب • وهذا يدل على أنه كان كالجاحظ يحتفظ بكثير من الدفاتر والكتب •

ولا شـــك أن كل ما كان قـد اجتمع لدى الجاحظ والمبرد وأضرابهما انما هو من نتاج هذه الفترة من تاريخ العرب والمسلمين، وهى الفترة التى نشط فيها تدوين الحديث ، واللغة ، والشعر ، والاخبـــار ، والتاريخ · وكان الخلفـاء يشجعون العلماء والادباء فيقربونهم ، ويغدقون عليهم المال ، ويختارون من أئمتهم من يقومون على تعليم أبنائهم وجواريهم · وانتشرت مجالس العلم والتعليم فى مســـاجد البصرة والكوفة وبغـداد ، وتعددت مجالس المناظرة فى المساجد والقصور ، وأنشئت المكتبات العامة وفى مقدمتها مكتبة بيت الحكمة ، وكثر الوراقون ، وكثر النساخون ، ونشطت حركة الترجمة وبلغت أوج تقدمها على يدى الخليفة المأمون ·

كان هذا كله فى حين أن العباسيين بعامة كانوا يسرون حقدا على العرب لأنهم خذلوهم فى صراعهم مع الأمويين ، ولأنهم لم يمكنوا لسلطانهم الا بمعونة من الفرس الحاقدين على العرب ، ولهذا لم يكن عجبـا أن يروى الطبرى فى تاريخه أن ابراهيم بن محمد العباسى صاحب الدعوة قال فى كتاب بعث به الى أبى مسلم الخراسانى «ان استطعت ألا تدع بخراسان لسانا عربيا فافعل ، فأيما غـلام بلغ خمسة أشبار تتهمه فاقتله » ، وان الخليفة المعتصـــم فعل مثل ذلك كما أسلفنا ·

وابان خلافة الرشيد كان المجتمع الاسـلامى قـــد بلغ ذروة مجده ، وصارت له سيادة عالمية فى السياسة والعلم والادب والفن، وصار نموذجا فريدا فى الترف المادى والمعنوى ، فلما تولى المأمون استكملت النهضة مقوماتها لما توافر للمأمون من جمع بين العـلم والادب والفن والثراء مما حمله على تقريب العلماء والادباء والاغداق عليهم فأقبلوا على الدرس والترجمة والانتاج فازدهر الفقه والشعر والنثر والادب بوجه عام ، ونقلت الى العربية علوم كثيرة من منطق وفلسفة ورياضة وفلك وطبيعة وكيمياء وموسيقى · وهضم المجتمع

الجديد هذه العلوم ومزج بينها وبين الثقافة العربية فنشأ ما سمى بالادب الاسلامى ، والعلوم الاسلامية مما فتح أمام العرب آفاقا واسعة ، وفجر ينابيع من القدرة والكفاية ٠

وفى ظل هذا المجتمع الذى توافر فيه ما توافر من علم وأدب ولد المبرد وترعرع ، فالمأمون قد بويع بالخلافة سنة ١٩٨ هـ ودامت خلافته عشرين عاما ، والمبرد ولد سنة ٢١٠ هـ أى أنه ولد خلال خلافة المأمون ، وتغذى من ثمار النهضة التى تمت على يديه ٠

وكانت البصرة مجمع العلماء والشعراء من جانب ، والكوفة من جانب آخر ، وأخذ الخلفاء يستدنون العلماء والشعراء فجاء اليهم كثيرون من الكوفة ، وأكثرهم من الموالى ولذلك عمرت بهم دور البرامكة ٠ فلما استوزر الرشيد الفضل بن الربيع العربى الصميم أخذ يعمل جاهدا على استمالة علماء البصرة من العرب الخلص لتعمر بهم داره كما عمرت دور البرامكة بأدباء الكوفة من الموالى ٠ وكان رجال الفكر والادب يجتمعون لدى الخليفة ولدى البرامكة ونحوهم فالكسائى مثلا كان يقوم على تأديب محمد الأمين وكان مؤدب الخليفة من قبل ، وسهل بن هارون كان مختصا بجعفر البرمكى ٠٠وهكذا٠

وذهب من ذهب من العلماء والأدباء الى بغداد للمسامرة والمنادمة والتأديب ، وبقيت حلقات الدرس فى البصرة والكوفة ، غير أن البصرة ابتداء من منتصف القرن الثانى صار الموالى خطرا عليها اذ تمرسوا بكل ما هو من خصائص العرب ، وبكل ما كان ينبغى أن يظل مقصورا عليهم ٠ وكان أصحاب البيوتات من عرب وفرس يفتحون دورهم للعلماء والادباء وأصحاب النحل ، فترى تلك البيوتات تموج برجال الحديث والفقه واللغة ، وبالخطباء ورواة الاخبار والاشعار ، وبالشعراء المحدثين بلا تمييز بين المولى والعربى الأصيل ٠ وكثر فى الموالى الشعوبيون الذين كانوا قد أجمعوا على

أن يفسدوا التاريخ كله ليفسدوا بناء عليه واقع العرب ، وليتم لهم فى ظل ذلك تحقيق الانقلاب الذى عقدوا نيتهم عليه ٠

بدأ هؤلاء الشعوبيون باثارة الشكوك ليكون الشك نقطة الانطلاق الى تحقيق الهدف المنشود ، وبدءوا بالشعر لمعرفتهم بمدى أثره فى العرب ، ودعوا الى التعصب للنسب غير العربى ، وبذلوا كثيرا من الجهد فى بعث أمجاد الفرس ، وانحرف أكثرهم عن الجادة، وكان على رأس هؤلاء المنحرفين بشار بن برد الشاعر الأعمى ، ومعمر ابن المثنى ، وسلم الخاسر ، وحماد الراوية ، وحماد عجرد ، وعبد الكريم بن أبى العوجاء ٠ وظهر من بين هؤلاء المنحرفين زنادقة دسوا الزندقة فى شعرهم وأدبهم مثل بشار ، والرقاشى ، وابان اللاحقى ، وصالح بن عبد القدوس ، وابن المقفع الذى نادى بأن يكون الجند من الخراسانية الذين خرجت منهم فئة تقول بالتناسخ وتسمى نفسها «الراوندية» ، وهى تلك الفئة التى تجرد الخليفة المنصور لها وقبض على كثير من زعمائها وأودعهم السجن ، غير أن عامتهم ثاروا وتجمعوا وهاجموا السجن وأخرجوا السجناء مما دعا الخليفة المنصور الى أن يقود بنفسه حركة القضاء عليهم ، وآزره فى ذلك الشعب فتمكن من افناء خلق كثير منهم ترك جثثهم فى العراء طعاما للوحش والطير وعبرة لغيرهم ٠

وألف أبو عبيدة معمر بن المثنى كتاب «أخبار الفرس» وكتاب «فضائل الفرس» وكتاب «لصوص العرب» وكتاب « أدعياء العرب » وألف الهيثم بن عدى « كتاب المثالب الصغير » و « كتاب المثالب الكبير» وكتاب «مثالب ربيعة» وكتاب «أسماء بغايا قريش فى الجاهلية وأسماء من ولدن » وألف يونس بن أبى فروة كتاب « مثالب العرب والاسلام» وحمله الى امبراطور الروم فأجازه عليه بجائزة كبيرة ٠ وغاية ذلك كله توطيد الشعوبية ونشر مذهبها، وكان معمر بن المثنى يظهر الشماتة بكل عربى أموى يقتله العباسيون دون رعاية لحرمة

الموتى ، وكذلك كان يفعل كثير من الأعاجم الذين أصبحوا عربا بالولاء وباللغة ، وكان الأصمعى يتلقى العلم عن معمر بن المثنى وعمرو بن عبيد ولا ينكر فضلهما فى المعرفة ولكنه لا يستريح الى شعوبيتهما ، ثم اتصل بخلف الأحمر عسى أن يجده أقل تعصبا للشعوبية منهما فاذا هو وهما سواء ، لكنه لحظ أن العلم تحول اليهم ، والى أمثالهم من غير العرب فظل يلزم مجالسهم ، ويأخذ عنهم على مضض .

وخلال هذه الفترة ظهر قاصون كثيرون كانت لهم مجالس يتحلق فيها الناس من حولهم لسماع عجيب قصصهم ، وكان هؤلاء يشكلون خطرا كبيرا على العقيدة السليمة بما يلقون على الناس من أمثال عربية وضعوا عنها قصصا تزرى بالعرب ، وبما وضعوا من أحاديث ينسبونها زورا الى النبى الكريم فى حين أنها لا يقرها عقل ولا دين ، بل لقد كان يضيق بها الملاحدة أنفسهم بعض حين كالذى روى من أن بشارا وهو من هو الحادا وزندقة كان يمر يوما بحلقات المسجد فسمع قاصا يقول : «من صام رجب وشعبان ورمضان بنى الله له قصرا فى الجنة صحنه ألف فرسخ فى مثلها ، وكل باب من أبواب بيوته ومقاصيره عشرة فراسخ فى أمثالها » ، فالتفت بشار الى قائده وقال : « بئست والله الدار هذه فى كانون الثانى » .

وبشار بن برد الذى ضاق بقول هذا القاص الكاذب على الرسول كان يأخذ بمذهب الجبرية ويدعو اليه ، وقوام هذا المذهب نفى الفعل حقيقة عن العبد واسناده الى الرب ، وبعض أئمته لا يثبتون للعبد أى فعل أو أى قدرة على الفعل ، وبعضهم يثبت للعبد قدرة غير مؤثرة وهم بذلك يشككون فى ثواب الآخرة وعقابها لأن الفاعل هو الله. فكيف يفعل ويعاقب الأداة التى سخرها للتنفيذ؟ وفى هذا يقول بشار :

طبعت على ما فى غير مخير هواى ولو خيرت كنت المهذبا
أريد فلا أعطى ، وأعطى ولم أرد وقصر علمى أن أنال المغيبا
فأصرف عن قصدى وعلمى مقصر وأمسى وما أعقبت الا التعجبا

وكان يحن الى عبادة النار التى كانت ديانة الفرس قبل الاسلام فيقول :

الأرض مظلمة ، والنار مشرقة والنار معبودة مذ كانت النار

ويقول :

ابليس خير من أبيكم آدم فتنبهوا يا معشر الفجار
ابليس من نار وآدم طينة والارض لا تسمو سمو النار

ويجاهر بشعوبيته فيفخر بالانتساب الى العجم ويقول :

نمت فى المكارم بى عامر فروعى ، وأصلى قريش العجم

ويحط من شأن العرب ويعيرهم ويفضل جنسه الفارسى عليهم فيقول لواحد منهم :

أحين كسيت بعد العرى خزا ونادمت الكرام على العقار
تفاخر يا بن راعية وراع بنى الأحرار؟ حسبك من خسار

واذا كانت كل هذه البلبلة وهذه الاخطار قد نشأت عن اختلاط العرب بالموالى فهناك شىء آخر كان من نتائج هذا الاختلاط فقد فسد اللسان العربى فسادا جعل اللغة العربية لغتين : لغة عامية هى التى يسميها الجاحظ لغة المولدين والبلديين وهذه لها ألفاظ غير منتقاة ، وتتسامح فى الاعراب وتميل الى اسكان اواخر الكلمات ، ثم لغة الطبقة الراقية المتعلمة وهذه لغة معربة متميزة هى لغة الكتابة والتأليف . ولقد كان هذا من أسباب وضع علوم اللغة والنحو والبلاغة ثم التأليف فيها ، ونشأ عن ذلك علماء أجلاء أنفقوا

وقتهم وجهدهم فى التعلم والتعليم وكانوا يرحلون من بلد الى بلد رغبة فى الافادة والاستفادة ، كما قاموا برحلات متعددة الى البادية يلتقون بسكانها ، ويأخذون عنهم اللغة ، ويروون عنهم الاخبار لأنهم وجدوا أهل الحضر قد فسدت ألسنتهم ، وشاب اللحن لغتهم، وكان البصريون يفخرون على الكوفيين بأنهم يأخذون اللغة عن صميم أهل البادية فى حين يعتمد الكوفيون على حضر فسدت لغتهم ٠

وكان كثير من الادباء والشعراء يفخرون برحلاتهم الى البادية وتعلمهم على أهلها حتى الموالى أنفسهم ، فلقد سئل بشار عن سبب عدم لحنه فى أشعاره فقال : ومن أين يأتينى الخطأ وقد ولدت هاهنا ، ونشأت فى حجور ثمانين شيخا من فصحاء بنى عقيل ، مافيهم أحد يعرف كلمة من الخطأ ، ولئن دخلت الى نسائهم لوجدتهن أفصح منهم فمن أين يأتينى الخطأ ؟ وسئل الخليل بن أحمد : من أين علمك هذا ؟ فقال : من بوادى الحجاز ، ونجد ، وتهامة ٠

وبوساطة هذا العناء والجهد تمكن العلماء من وضع ضوابط للغة ، واستطاعوا أن يجمعوا مفرداتها فى معاجم تطورت على مر الايام حتى وصلت الى ماهى عليه الآن من تبويب وتنظيم ٠

وكما كان زائر البادية يتلقى اللغة كان كذلك يتلقى الادب فقد كانت دراسة اللغة والادب ذات اتصال وثيق ، فعن طريق رواية الاشعار والاخبار كانوا يتعلمون اللغة ومفرداتها ، وأهل البادية ـ كما يقول الجاحظ ـ لهم أدب فى القمة ، وكلامهم من أمتع الكلام ، فلا ألذ فى الاسماع ، ولا أفتق للسان ، ولا أكثر تأثيرا فى البيان من طول الاستماع الى حديث الأعراب الفصحاء ٠

وأدب البادية يمتاز بخفة روحه ، ورشاقة لفظه ، وبعده عن التأثر بالآداب الاخرى على عكس ما كان عليه أدب الحواضر من التأثر بالآداب الفارسية والهندية والرومية ٠ وكان لعلماء اللغة طبع صاف

أعانهم على تذوق الادب ونقده فكانوا أدباء وعلماء فى وقت واحد ، ولم يكن من اليســـير الفصل بين الادب وعلم اللغة فى ذلك الوقت لذلك فان كل علماء اللغة فى هذا الوقت من نحو الخليل بن أحمد والكسائى والمبرد وثعلب كانوا الى جانب علمهم باللغة أدباء ٠

واذ ان جهد موضوعنا ينصرف الى المبرد ، وهو امام من أئمة العلم والادب الذين عاشوا فى هذه الفترة التى ازدهر فيهـا هذان اللونان أيما ازدهار نرى لزاما علينا أن نتحدث بايجـاز عن تطور الادب والنحو وهما المادتان اللتان برز فيهما المبرد ، وكان له فيهما انتاج وافر ، وآثار خالدة ٠